التعقيب على الملحوظات على بحث: الدور الحربي للمرأة البدوية في الجزيرة العربية في القرنين التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الميلادي: العطفة والعمارية أنموذجًا"

فقد اطلعت على تعقيب الأستاذ/ نائف بن سجدي الهيضل المنشور في مجلة الدارة في العدد الرابع للسنة التاسعة والأربعين على ما ورد في بحثي الموسوم بـ: "الدور الحربي للمرأة البدوية في الجزيرة العربية في القرنين التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين"، وأشكر الأستاذ/ نائف على إشادته بالدراسة وتقديره للجهد المبذول، وتأكيده الحيادية في البحث، كما أشكره على الملحوظات والاستدراكات التي قدمها، والتي تنم عن اهتمامه بتاريخ قبيلته، وفيما يأتي ردي على ما جاء في تعقيبه.

المرئيات حول ما ورد من ملحوظات:

الملحوظة (١) وصف شكل مركب العطفة: يرى المعقب الصواب في الهيئة التي صورها لشكل مركب العطفة بناءً على رواية القبيلة بخصوص استخدام الخيزران وريش النعام. هذا ما ذكره المعقب في الصفحة (١) ثم ناقضه في صفحة (٢) بقوله: "ولا نعني بذلك نفي استخدام الخيزران وريش النعام بمراكب العطفة خاصة لدى قبائل شمال الجزيرة العربية"، لكنه يعود معلقًا سبب تصحيحه على أمرين هما: الأمر الأول: أن الخيزران لا ينبت في بلاد العرب، والأمر الثاني يرجح أن النعام كان انقراضه من إقليم نجد في الخمس

الأول من القرن الرابع عشر الهجري (١٣٠٠-١٣٢٠هـ).

أقول: الاحتجاج للأمر الأول بأن عدم وجود الخيزران يعود إلى أنه لا يزرع في بلاد العرب، معلومة غير صحيحة؛ فالخيزران يزرع في جميع أراضي الكرة الأرضية عدا قارة أوروبا، إضافةً إلى أن الخيزران مادة مستخدمة في صناعاتنا المحلية، واسم الخيزران متداول ومتعارف عليه في ثقافتنا العربية منذ القدم وذكر في الشعر الفصيح والشعبي وحتى في أسماء الفتيات، علاوةً على أن استخدام الخيزران في مركب العطفة كان بكمية يسيرة لا تُذكر وتكون على جمل واحد عند كل قبيلة لديها عطفة، وهذه الكمية من السهل جلبها من خارج بلاد العرب في حالة عدم وجود الخيزران في أرضهم.

وأما الأمر الثاني المتعلق بانقراض النعام فانقراضه كان آخر أوقات البحث، وكما قلنا لو أخذنا بقول انقراضه فمن السهل جلب ريش النعام من خارج المنطقة، لأن الكمية قليلة جدًّا، ومع ذلك فقد ناقشت في البحث قضية انقراض النعام وبينت وجود النعام في زمن الدراسة.

من جانب آخر يصحح المعقب بناءً على روايات القبيلة (نقل روايته عن الدعجاني والشيباني)، ونحن اعتمدنا على المصادر المعاصرة، وأثبتنا وجود ريش النعام بالصور في ملحق البحث. علاوةً على أن بحث العطفة لم يكن لمكان معيّن أو قبيلة محددة، بل عن عادة العطفة في الجزيرة العربية عمومًا.

الملحوظة (٢) اسم المجنوحة والمثمونة: عن اسم المجنوحة عند عتيبة، واسم المثمونة عند قحطان: يرى المعقب عدم صحة ما ذكر في بحث العطفة. والصواب أن عتيبة وقحطان تسميانه الشداد. واستشهد في تصحيحه ببيت شعري من قصيدة تذكر الشداد الذي يوضع في مجالس بيت الشعر وليس الذي يوضع فوق جمل العطفة:

ملفاك شيخ منزله بالشنادي

تلقى الأشدة عند بيته مكاويع

أقول: كتب في هامش بحث العطفة عن تميز لدى قبيلتي عتيبة وقحطان لمسمى الشداد الذي يوضع فوق جمل العطفة فيسمى عند عتيبة المجنوحة، وعند قحطان يسمى المثمونة، وهذان الاسمان نُقلا عن مصدر معاصر وهو المستشرق الألماني (جوهن جاكوب هيس) الذي نقل معلوماته عن موروث قبيلة عتيبة عن شخص اسمه (موهق بن عجاج الغنامي) أحد فرسان عتيبة والعارفين بموروثها، والأمر نفسه عن موروث قبيلة قحطان الذي كان هيس قد أخذ معلوماته عن (مسفر القحطاني) أحد فرسان قبيلة قحطان.

وأتساءل هنا هل يصح أن ننقل عن شخص جاء بعد أربعة أجيال أو خمسة، ونخطئ شخصًا نقل عن معاصرين لتلك الحقبة؟

الملحوظة (٣) لون جمل العطفة: يقول المعقب: الصواب

أن يكون الجمل مغترًا، سواء كان أوضحَ أم أشقح أم أشعل، والهدف حسب تصويبه أن المغتر أطوع وألين وأحسن سيرًا من غيره. واعتمد المعقب في تصويبه على روايات قبيلته نقلاً عن (الدعجاني والشيباني)، ثم يكمل تعقيبه بقوله: ويراعى ذلك في الأسفار العادية ويستشهد ببيت شعري لبصري الوضيحي وبيت شعري لفهيد المجماج.

أقول: شرط لون الأوضح نقلته من مصدرين معاصرين، واكتفيت بهما، لكن هناك مصادر ومراجع أخرى تؤكد أن يكون لونه أوضح. ثم الصفات التي ذكرها هي صفات يمتلكها الجمل الأوضح.

أما تعقيبه باستخدام المغتر في الأسفار العادية فهي زيادة لا علاقة لها بموضوع العطفة. كما لا يرى صاحب التعقيب فرقًا بين جمل العطفة، والجمل الذي يوضع عليه الهودج في الأسفار. فهذا تناقض وإلغاء أي صفة تميز جمل العطفة عن بقية الجمال التي توضع عليها الهوادج المستخدمة للنقل والأسفار، ولا سيما للنساء.

على العموم رأي المعقب يلغي كل آراء المصادر المعاصرة التي ذكرت شرط لون جمل العطفة. وصاحب التعقيب يؤكد لنا أنّ أيّة معلومة مهما كانت قيمتها، وأقدمية مصدرها، وتعدد مصادرها وتنوعها، واختلاف مركزية تلك المصادر – هي غير صحيحة، ما دامت لا تتوافق مع رواية قبيلته.

الملحوظة (٤) عن السرج الذي يوضع تحت الجمل: يقول المعقب: الصواب أن للجمل رحلين خاصين به؛ الأول الشداد

والآخر المسامة، والذي يتخذ للعطفة هو الشداد، أما السرج فهو رحل خاص بالخيل.

أولاً ما نُقل كان عن عطفة الرولة (أبو دهور) والمقصود بالسرج هنا كما ذكر المصدر هو الذي يوضع تحت الجمل ويرادفه في الاسم السرج الذي يوضع فوق الحصان. والاختلاف بين سرج الجمل وسرج الحصان يكون في الشكل والحجم. والسرج له أسماء أخرى عند بعض القبائل ومنها قبيلة عتيبة كما سماه صاحب التعقيب. لكن حديثنا كان عن وصف عطفة الرولة. والمصادر التي تناولتها متعددة ذكرت هذا الاسم ومنهم صاحب كتاب: (البدو والبادية) الذي كان يصف مشاهداته وينقل عن الشيخ ابن شعلان. ولا يخفى علينا معرفة صاحب الكتاب بالجمل فقد كتب عنه كتابة علمية تعدّ من المراجع الأولية عن هذا الحيوان، وله مبحث في الكتاب عن عطفة ابن شعلان؛ لذا اعتمدت عليه مصدرًا معاصرًا في نقل هذه المعلومة.

الملحوظة (٥) اسم وضحا بنت محسن الهيضل: ذكر عدم وجود اسم وضحى ضمن بنات محسن الهيضل. وأن المشاركة في ذلك المناخ هي شيخة بنت محسن الهيضل. وأكد صاحب التعقيب أنه من الأولى على الباحث أن يستقي معلومات كل عطفة من "قرابتها" فهو أحرى للدقة.

أقول: الخطأ واللبس واردان، ومن أجل التأكد من عدم وجود اسم وضحا كما ذكر صاحب التعقيب، بحثت وتأكدت من وجود اسم وضحا بنت محسن الهيضل، وهي أخت شيخة.

وقد تزوجت وضحا من الفارس: "مقعد ابن حميد". "موقع الهياضل في تويتر".

مع ذلك فلا مانع من التأكد أكثر. لكن عدم معرفة صاحب التعقيب باسم وضحا لا يعني عدم وجود هذه الشخصية.

أما قول صاحب التعقيب الأخير: على صاحب بحث العطفة العودة في كل عطفة إلى أقربائها، فأقول: قبل ثلاثة أعوام قمت بمراسلة من اعتقدت أن لديه المعلومة. وتواصلت مع باحثين ورواة رجال ونساء من كل القبائل بعضهم أفاد وتعاون، وبعضهم رفض التعاون وأنكر أن لقبيلتهم علاقة بالعطفة، واحترمت رغبتهم. ومن ضمن من سألت باحثون ورواة (رجال ونساء) من عشيرة الدعاجين، وقد طلبت التعاون معي بالإجابة عن تساؤلات تخص عطفة الدعاجين، ولم أحصُل على رد منهم، وبعد مدة من الزمن طلبت منهم إيصالي إلى أيّ راوٍ يمتلك معلومات عن عطفة الدعاجين، وخصصت بطلبيً أسرة الهياضل لقيمتهم ومكانتهم. ولكن لم أجد حقيقة من يجيب عن تساؤلاتي أو يخدمني بالتواصل مع هذه الأسرة الكريمة مع جدية المحاولة. وكما تعلمون أن بحث العطفة متنوع ومتعدد ولم يركز على جماعة من دون أخرى، كما حرصنا على اختلاف المصادر وتنوعها، ومنها المصادر والمراجع الشفهية، فيكفي أن ينظر القارئ إلى أسماء الرواة وتنوعهم ويقتنع بالجدية والحيادية والتأني في كتابة البحث. فهذا البحث لم يولد في عام أو عامين بل بكل فخر واعتزاز هو حصاد

تجربة علمية لسنوات طوال.

الملحوظة (٦) مشيخة عتيبة: يقول صاحب التعقيب: لم يعز الباحث عن مشيخة ابن حميد وابن ربيعان إلى مصدر أو مرجع، والصواب كما يرى صاحب التعقيب عدم نسب المشيخة على روق أو برقا أو عتيبة إلى بيت مشيخة معين. ثم ختم بوضع أسماء ثلاث أسر برزت في قبيلة عتيبة شيوخًا لها ورتبها هكذا "الهياضلة، والرباعين، والحمدة".

أقول: أنعم بما ذكر من أسر، وأتفق معه أن لعتيبة رؤساء وليس لها رئيس واحد.

الملحوظة (٧) عطفة الحمدة يتبعها برقا من عتيبة: لم يعز الباحث معلوماته إلى مصدر أو مرجع. وأكد المعقب أن عطفة ابن حميد يتبعها المقطة من عتيبة.

أقول: الوثائق التاريخية تثبت حضور مشيخات أخرى غير الحمدة سواء من برقا أو روق. لكن أعود وأقول: إن هذا البحث لا علاقة له بمنعطفات القبيلة - أي قبيلة كانت - فندخل في مسار آخر لا يفيد البحث العلمي. وعلى العموم رجع الباحث إلى مصادر ومراجع عن عطفة ابن حميد ومنهم مرجع (الوذياني).

الملحوظة (٨) عطفة الهياضل: يقول صاحب التعقيب: ذكر الباحث ما نصه: "عطفة الهيضل شيخ الدعاجين يتبع عطفته أغلب فروع قسم عيال منصور القسم الثاني من برقا. انظر: العبيد، النجم اللامع. ص٢٧٣".

ثم يقول المعقب: (بالرجوع إلى المصدر المحال عليه

يتضح أن العبيد كان يتحدث عن قبيلة عتيبة، فقد ذكر في بداية حديثه: "أما عتيبة فينقسم نسبهم إلى قسمين برقا والروقة، أما برقا فهم ثمانية أفخاذ". وأخذ العبيد يعدد أفخاذهم ورؤساءهم حتى وصل إلى الدعاجين فقال: "وكان أغلبهم فرسانا وهم العطفة في أيام المناويخ وكانوا كراما أيضا". ثم استمر في تعداد أفخاذ عتيبة، فالعبيد هنا يختص الدعاجين بالعطفة من سائر عتيبة، بخلاف ما ذكره الباحث، ولم ينفرد العبيد بذكر هذا بل وافقه محمد أبو خطمة في قصيدته بقبيلة عتيبة التي قال منها:

فيها عتيبة كنهم زامي الطار

مثل العساكر صوتهم بالمزامير

وبعدما مدح قبيلة عتيبة وخصص عددا من شيوخها قال:

وعطفتهم الهيضل قديم وصبار

بآلاد مفلح لابسين المقازير

ومن قولي العبيّد وأبو خطمة يظهر أن عطفة عتيبة الرئيسة هي عطفة الهيضل، وأنها أقدم العطف، فالأصل ألا تساق في حضوره غير عطفته، ويستثنى من ذلك بعض المناويخ. ويعضد ذلك أيضا تلقيب عيران الهيضل ببناني البيت، وهو بيت الحرب الذي يبنيه الهيضل في مناويخ عتيبة وفيه مقر وجود العطفة ومنه انعقاد رأي الحرب، ومن الشواهد الشعرية قول فراج التويجر في مناخ عرجاء ١٣١٣هـ:

هيضل ما هو تلاميس العلوم

ترث باني البيت عزال الجهام

وردًّا على هذا أقول: إن هذا الشرح المطول يريد منه صاحب التعقيب تأكيد أن عطفة عتيبة عند الهياضل مستشهدًا بقول العبيد صاحب (النجم اللامع).

إن قول العبيد هذا سبق أن ذكر في موضعه من بحث العطفة في (ص٢٢٢): (وتقديم القبائل في الحروب يُعَدُّ شرفًا عظيمًا ومسؤولية كبرى لا يستطيع تحمُّلها سوى العصبة القوية وهي محل ثناء وفخر لهم، فمدح المؤرخ العبيد الشيخ مناحي الهيضل وجماعته الدعاجين بقوله: "كان أغلبهم فرسانًا ولهم العطفة في المناويخ". ويقول الشاعر مادحًا الهيضل شيخ الدعاجين:

بَأوْلَادْ مِفْلِحْ لَابْسِين المقَازِير

عَطْفَتْهَمَ الْهِيضَلَ قِدِيمْ وْصُبَّار

وفي (هامش ١٨٠) من البحث، جاء تفسير معنى هذا البيت بالقول: "هنا يمدح الشاعر الدعاجين الملقبين بأولاد مفلح، وشيخهم الهيضل لتمكنهم من تقديم العطفة وحمايتها وقت الحروب". وكان الرجوع إلى الصويان في تفسير معنى البيت.

لكننا نجد صاحب التعقيب يفسر قولي العبيد وبيت الشعر بتفسير آخر بقوله: "إن عطفة عتيبة الرئيسة هي عطفة الهيضل، وإنها أقدم العطف، فالأصل ألا تساق في حضوره غير عطفته، ويستثنى من ذلك بعض المناويخ".

فآمل من المعقب العودة إلى ما ذكره العبيد والبيت الشعري (لأبو خطمة). فتفسيره فيه عدم دقة لما ذكره العبيد وأبو خطمة.

كما أستغرب من فهم صاحب التعقيب لما جاء في بحث العطفة (ص٢٢٥). عند توضيح التطور التاريخي للعطفة عند قبيلة عتيبة في القرن التاسع عشر كانت لديهم ثلاث عطف "عطفة الرباعين وعطفة الحمدة وعطفة الهيضل". واستقلال بعض عشائر عتيبة بعطف خاصة بهم في نهاية ذلك القرن... إلى آخره.

وتم الرجوع في المعلومات إلى (ابن بليهد). وعند ذكر عطفة الهيضل جرى توضيح التابعين لها وهم أغلب فروع عيال منصور. وفي الهامش الذي يليه بين العطف التي استقلت عن عطفة الهيضل. وتم الرجوع إلى (ابن بليهد والصويان).

الواقع يقول من الصعب الأخذ بالتاريخ الشفهي الخاص على حدة، واعتبار الروايات الخاصة هي المرجع الرئيس الموثوق فيه لدرجة تصل إلى رفض أي مرجع أو مصدر آخر. فالباحث الأكاديمي الحقيقي يعتمد ما جاء في المصادر المعاصرة والمراجع المتعددة والمتنوعة والمختلفة حتى في مركزياتها الثقافية، ومنها المراجع الشفهية، لكنها لا تكون بمعزل في التعامل عن بقية المصادر والمراجع.

الملحوظة (٩) رواية ابن بليهد: يقول صاحب التعقيب إن الباحث اعتمد على ابن بليهد في عطف عتيبة في مناخ عرجاء. والصواب أن ما ذكر ابن بليهد غير دقيق وأنه واهم أو من نقل عنه واهم. ثم يذكر اعتباراته بالمبالغة في عدد العطف، وحادثة استقلال عطفة أبا العلا في مناخ عرجاء والصواب كما يرى المعقب أنها حدثت في مناخ الرشاوية. ثم يشير المعقب إلى قول سليمان الحديثي عن مشاركة عطفة أبا العلا في الرشاوية.

الرد على ما ذكر أولاً: أن ما ذكرناه عن مناخ عرجاء هو كمثال. وإذا كانت مشاركة تلك البيارق ومنها عطفة أبا العلا في مناخ عرجاء أو الرشاوية هو ما يعنينا وهو وجود عطفة خاصة في أبا العلا. ثم إن مشاركة أبا العلا في مناخ الرشاوية لا تعني عدم مشاركته في عرجاء، فأبا العلا شيخ وعقيد قوم وصاحب مشاركات حربية كثيرة.

أما ثانيًا فصاحب التعقيب يحكم على عدم دقة معلومات ابن بليهد الذي كان ينقل عن معاصرين لتلك الأحداث ويبين أسماء من نقل عنهم، ونحن نعلم بوصفنا باحثين في التاريخ ضرورة موازنة ما كتبته المصادر والروايات بعضها ببعض للوصول إلى الحقيقة التاريخية.

الملحوظة (١٠) النصوص الشعرية: يقول صاحب التعقيب: وظف الباحث بعض النصوص الشعرية شواهد على العطفة، ومن ذلك قول الشاعر:

الرابح اللي ما حضر بالاميلاح

ولا شاف لجة خلجنا بالمراحي

ان انثنيت مناطحٍ شلف ورماح

وان انهزمت مغيزل العين صاحي

ويعلق المعقب بقوله: ويبدو أن هذا التوظيف غير دقيق إذ إن النص الشعري قيل في معركة حدثت عند ظعائن قوم الشاعر في أثناء ارتحالهم، وعادة ما تكون المعارك عند ارتحال القبيلة ذات شراسة، وربما كان هذا واضحًا في قوله:

تهن يا زمل اريش العين وارتاح

ما دام زلبات السبايا تناحي

أقول: إن صاحب التعقيب يحكم هنا على قول الباحث وتفسيره، وعلى من نقل عنهم مثل "الصويان وفهد المارك". وأنهما شرحا هذه الأبيات وبينا دور العمارية رداح، لكن يبدو التباس الأمر على المعقب في التفريق بين العطفة والعمارية مع وضوحها في البحث.

الملحوظة (١١) إلغاء عادة العطفة: يرى صاحب التعقيب عدم صواب ما ذكره الباحث من أن توقف عادة العطفة كان بقرار من الملك عبدالعزيز، وأن الصواب كما يراه هو أنه كان بقرار من القبائل وأنه تزامن مع استقرارهم بالهجر وحدد تاريخ الاستقرار بالهجر عام (١٣٣٠هـ).

أقول: إن المعقب يرى أن توقف استخدام عادة العطفة بدأ مع استقرار القبائل بالهجر. والبحث ذكر توقفها بعد توحيد الملك عبدالعزيز آل سعود للمملكة العربية السعودية. واعتمد البحث في معلومته على مصادر أولية ومعاصرة هي: "الريحاني، وابن بليهد، وآل عبدالمحسن". وفي الهامش تم توضيح أن هناك عادات أخرى ألغاها الملك عبدالعزيز ولا يقتصر ذلك على عادة العطفة فقط، ومن أراد التعرف على تلك العادات فليرجع إلى ما كتبه صاحب كتاب "من شيم الملك عبدالعزيز".

وأما مسألة استقرار القبائل بالهجر وتحديده بعام (١٣٣٠هـ) مع عدم صحة هذا التاريخ وأن التوطين بدأ قبل هذا العام، فلو قلنا فرضًا هذا التاريخ وهو عام (١٣٣٠هـ) هو بداية توقف عادة العطفة كما ذكر صاحب التعقيب، فأقول: هذا الرأي غير دقيق بدليل أن عادة مشاركة العطفة حاضرة في مناخات وحروب القبائل بعد هذا التاريخ. كما جاء في صفحات البحث.

الملحوظة (١٢): ذكر صاحب التعقيب أن ال التعريف سقطت من عويند:

نعم صحيح سقطت ال التعريف من اسم عويند.

المرئيات حول الاستدراكات لصاحب التعقيب:

ذكر صاحب التعقيب استدراكات أعتقد أنها بيت القصيد وسينظر إليها في الأيام المقبلة في حال تطور البحث إلى

كتاب، وستكون إضافة إلى أسماء العطفات والعماريات وكذلك أسماء المعارك والمناخات. فنحن في بحث العطفة لم نحصر كل ما نعرفه عن العطفات والعماريات ولم نذكر كل المعارك والمناخات التي شاركت فيها العطفة.

وأخيرًا .. فإني لا أدعي الكمال ولا حتى الاقتراب منه، وإن كنت سعيت وبذلت جهدي قدر طاقتي لتقديم أفضل ما أستطيعه، وأرحب، بل أنتظر، كل نقد "علمي موضوعي" يرشدني إلى موضع خلل أو زلل؛ لأتعلم منه وأتجنبه في قادم أعمالي، أو في هذا العمل نفسه.

أ. د. خليف بن صغير الشمري